ظلام في النهار

بقلم محمد حيدر

اذا كانت صفة **التقدم** او الرقي ، المستعملة بكثرة في هذه الايام ، تنطبق بحق على شيء في حضارتنا الحديثة ، فانما تنطبق على **الوجه المادي** لهذه الحضارة . وانالنكتشف هذه الحقيقة دون مجهود . فنظرة بسيطة للحضارات القديمة ، وللحضارة اليوم ، تطلعنا على مدى التقدم المادي الذي احرزه الانسان . واقرب دليل على ذلك ، ما نستعمله من منجزات الصناعة في شؤون حياتنا اليومية . لقد بلغ التقدم ، مرحلة اخذت فيه الآلة تحل مكان الفعالية الانسانية بالتدريج .. وفي كل شيء !

اما **الوجه الروحي** (الانساني ـ الاخلاقي) للحضارة ، فهو تماما على النقيض . حتى ان صفة التقدم ، لايمكن ان تنطبق عليه ـ ولو مجازا ـ بحال من الاحوال . بل يمكن القول ، دون تردد ، ان الحضارة في هذا المجال ، تعود الى الوراء ... وان وجهها الروحي يحمل كل ملامح الانسان القديم .

اننا نتقمص شريعة الغاب !!

ان التقدم الروحي، يعني ـ بكل بساطة ـ ارتفاع الانسان من صعيد السلوك الغريزي ، الى مستوى العمل الاخلاقي، واقامة بناء المجتمع على أسس أخلاقية وانسانية . ولكن الكوارث (حروب ـ ارهاب ـ حركات تطهير ـ جرائم ـ ازمات اقتصادية ...) التي مر بها العالم منذ اوائل القرن العشرين ، والكوارث التي نشهد نمو بذورها امام أعيننا الان ، تعطينا الحق فيما ذهبنا اليه .

ان انماط التفكير ، واساليب الحكم التي يخضع لها انسان هذا العصر ، تشكل البرهان الواضح على ذلك : فليس من العبث ، أو من قبيل الصدفة ، ظهور المذاهب الفكرية التي تمنح الانسان، وتعتبره (في أخلاقه وعواطفه وفكره) صدى لعلاقات الانتاج واساليبه . لقد اصبح الانسان في نظر هذه الفلسفات ، « **رقما** » في سلسلة الارقام .. اما حياته ، فليس لها من شأن ، الا بوصفها مصدرا للانتاج !!

وكالعجوز التي تستر وجهها البشع وراء المساحيق ، عمدت هذه المذاهب الي التنكر بالاقنعة الاجتماعية البراقة .. فأصبحت شعاراتها الدائمة : المجتمع ـ الشعب ـ الجماهير ... وباسم هذا المجتمع ، والاجيال القادمة ، والازدهار الانساني المقبل المبهم !! ترتكب اقسى أنواع الارهاب !!

كما أنه ليس من قبيل الصدف أيضا ، ظهور أنظمةالحكم المختلفة القائمة على الطغيان ، والتي تمارس بأساليب مختلفة سحق الفرد وتعذيبه .. واهدار حريته وكرامته . سواء منها : الاستبداد الذي تمارسه الطبقة النخبة «**الرأسمالية**» او الاستبداد الذي يمارسه الفرد « **الديكتاتورية** » او الاستبداد الذي يمارسه الحزب الفرد « **الشيوعية** ». والشيوعية لا جدال ، من بين هذه الانظمة ، أشدها هولا واكثرها خطرا على الانسانية وتشويها للانسان .

ان الفرد في الانظمة الرأسمالية ، **مرغم على العمل** وفق مشيئة المؤسسات الاحتكارية ـ وفي الديكتاتورية ... مرغم على العمل كما تريد السلطة الحاكمة ، **أما في الشيوعية ، فانه مرغم أيضا ... لا على العمل فحسب ، بل على التفكير** كما يريد الحزب ، وتلك غاية الاستبداد .

واذا كان الاستعمار الغربي (وامريكا خاصة تجسد هذا الاتجاه) يعبر عن انحداره الاخلاقي باضطهاد الزنوج وقتلهم بسبب اختلاف اللون ، فان العقيدة الشيوعية تنحدر على ذات المزلق،وذلك باضطهادها وقتلها كل من لا يؤمن بالعقيدة الشيوعية .. او يجاريها على الاقل !!

ترى ما الفرق بين ان نقتل انسانا لمغايرته لنا في اللون ، او ان نقتله لخلافه معنا في الرأي ؟

ان حضارتنا الحديثة ، تعتبر الشعوب البدائية متوحشة ، ولكن هذه الشعوب تبدو كالملائكة ، اذا قورنت بما ترتكبه بعض الدول اليوم !! كبقر بطون الحوامل ، وذبح الاطفال ، وحرق القرى العزلاء ..

لقد اصبح وجهنا الاخلاقي في بشاعة القرود !!

ان الحقيقة البارزة في حضارتنا، هي هذا التناسب العكسي بين وجهي الحضارة ، فنمو

كتاب الشهر

ارثر كستلر ـ مؤلف « ظلام في النهار » ولد عام ١٩٠٥ في بودابست . درس في فينا . اشتغل في الصحافة . انتسب عام ١٩٣١ الى الحزب الشيوعي الالماني ، وذهب الى روسيا عدة مرات . اشترك في الحرب الاهلية الاسبانية . انفصل عن الحزب الشيوعي عام ١٩٣٨ . كتب « ظلام في النهار » عام ١٩٣٩ .

الوجه المادي ، يقابله ضمور في وجهها الروحي .. حتى كاد ان يتلاشى ويزول . لقد صرنا نعتقد وكأن ثمة تعارضا بين قطبي التفكير الانساني : **الضمير والعقل** .

ان المناخ الذي يعيش فيه البشر اليوم ، وخاصة بعض المناطق من خريطة العالم ، مناخ لا انساني!! حيث يختنق الفرد ، في ظل فلسفات التشويه التي جردته من لونه الانساني ... وينسحق تحت وطأة الارهاب الذي يسود انظمة الحكم في تلك المناطق .

لقد نجم عن طغيان الوجه المادي على الوجه الروحي ، ان تحلل الانسان من التعاطف الاجتماعي ، ومن المسؤولية الاخلاقية الداخلية ... المنبثقة تلقائيا من اعماقه . اعني « الضمير » . وعلى هذا الاساس يجب ان نفسر ظهور الازمات المتتالية : في الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ... وانتشار القلق ، والامراض النفسية ، تلك الاوصاب التي اصبحت سمة من سمات العصر !!

ان الجماهير ، تعيش مناخها اللا انساني ، وتتحمل عذابها بصمت . ولكنما ـ عندما تحين الفرصة المناسبة ـ تفصح عن عذابها الحبيس،بالثورة التي قد تؤدي الى ازالة الطغيان. ولكن بعض الافراد ، اولئك الذين يملكون حسا اعمق ... هم الذين يجسدون المأساة . هؤلاء الافراد ، هم المفكرون. (شاعر ، روائي ، فنان ...) ومن هنا كان الادب مرآة العصر .

والاديب ، بحكم تفوقه الفكري ووعيه وحساسيته ، هو المعبر عن مشاكل العصر . (لذلك نلاحظ في فترات القلق السياسي او الاقتصادي او النفسي ، قلقا فنيا مصاحبا ، يواكب كل مجالات الحياة وارتباطاتها .. فمنذ الحرب العالمية الاولى ظهر كتاب من طراز « ريمارك » و « بريخت » من الذين عانوا مأساة توصيل الانسان الى الجنون ، بالحرق وبالغاز وكافة الوسائل الاخرى ... ـ **الآداب** ، العدد ٨ ـ ١٩٥٨ محيي الدين محمد)

وقد ظهر في السنوات الاخيرة ، كتابان .. نعتبرهما ، عن جدارة ودون هوى ، خير تجسيد لمأساة الانسان الحديث ، ولاختناقه في مناخ لا انساني . هذان الكتابان، هما : « **الساعة الخامسة والعشرون** ـ لكونستانتان جيورجيو » و « **ظلام في النهار** » .

ان الشعور الرئيسي الذي يخالج قارىء الكتابين .. نوع من الرعب الداخلي ، لقسوة الاحداث ، ونتيجة التخيل لاحتمال ان يطغى جو الرواية على العالم ، وذلك ناجم عن الشروط اللاانسانية التي يعيش فيها أبطال الروايتين.

اما « الساعة الخامسة والعشرون » فانها تعبر عن طغيان النزعة الالية على الفكر البشري ، وعن مأساة الفرد في سياقه الانساني العام . انها تعالج الحضارة ككل . اما « ظلام في النهار » فانها تعبر عن مأساة الفرد ، في وضعه الفردي .. في ظل نظام معين.!!

لسنا هنا بصدد المقارنة بين الروايتين ، ولكن تشابههما قادنا الى هذه المقارنة الموجزة . ومن هنا يتضح ان حديثنا السابق لم يكن فضولا فكريا من جانبنا ، كما انه ليس من قبيل الحديث السياسي المقصود . ان طبيعة الكتاب تستلزم ذلك ، وسوف تقودنا في الصفحات القادمة ... الى حديث من هذا القبيل .

« الرواية »

« روبشوف » ... واسمه الكامل : نقولا سلمانوفتش روبشوف ، قائد ثوري في دولة شيوعية كبرى . ظل يعمل في خدمة الحزب طيلة حياته . دفعته الاحداث التي وقعت في الحزب ، الى اعادة النظر في كل الاعمال التي قام بها ، والعقائد التي آمن بها ... فاكتشف خطأه وادرك ان كل أعماله ومبادئه لم يكن لها أي مستند اخلاقي ، كانت مجردة من كل القيم والاعتبارات الانسانية والاخلاقية ، ومناقضة لابسط قواعد المنطق !! لقد عمل طوال حياته حسب القاعدة المشهورة .. قاعدة الحزب : **« الغاية تبرر الوسيلة »** ولكنه اكتشف بعد فوات الوقت ، خطأه .

اعتقل **روبشوف** بسبب تفكيره المتحرر .. وانتهى به الامر ، كفيره ، الى الاعتراف العلني بجريمته ، ومن ثم اعدم بالرصاص . ذلكم هو المخطط الاولي للرواية .

ان المؤلف ، ولو انه لا يعطي ابطاله اسماء صريحة ، يدرك المقصود : **الرجل الكبير ، او ابو الثورة ، او الاله الاب، هو « لينين » . الرجل الاول ، هو « ستالين » . أما الدولة، ويستعمل لها المؤلف كلمة « هناك » فهي : روسيا .**

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب : ان أشخاص هذا الكتاب، خياليون . ولكن الظروف التاريخية التي حددت افعالهم صحيحة . ان حياة روبشوف ، هي خلاصة حيوات رجال كثيرين .. كانوا ضحية ما يسمى : محاكمة موسكو ـ وكان المؤلف على معرفة شخصية بكثير منهم . وهذا الكتاب مقدم لذكراهم .

ونعتقد ان الجانب الاكبر من حياة روبشوف ، يمثل « بوخارين ».

*

البداية :

(... دخل « روبشوف » وانصفق باب الزنزانة وراءه ، فتريث برهة ، ثم أسند ظهره الى الباب واشعل لفافة . الى يمينه كان سرير خشبي عليه فراش من قش تغطيه بطانيتان ... استلقى على السرير الخشبي وتدثر بالبطانية . الساعة الان الخامسة صباحا ، وليس من المحتمل ان يوقظوه قبل السابعة .. وعندما تطلع السجان بعد قليل من الكوة الصغيرة ، كان روبشوف ـ قومسيير الشعب سابقا ـ نائما ، وظهره الى الحائط ، وقد أسند رأسه على ذراعه اليسرى الممدودة خارج الفراش ، وراحة يده المرتخية تنقبض بعصبية اثناء نومه .. « ص ٤ »)

قبل ساعة واحدة كان روبشوف في منزله . وعندما جاء ضابطان من قومسيارية الشعب لاعتقاله،كان روبشوف يحلم بأنه اعتقل .

منذ سنوات ... وروبشوف فريسة للكوابيس !! كانت

ذكرى اعتقاله الاول في المانيا ، عندما اوفده الحزب بمهمة رسمية ، تعاوده دائما اثناء النوم . وفي هذه الليلة بالذات ، كان يحلم كعادته باعتقاله السابق . وعندما صحا روبشوف من الكابوس .. كان العرق يتصبب منه . اضاء النور ، واخذ ينظر بسخرية الى صورة « **الرجل الاول** » زعيم الحزب . كانت الصورة معلقة فوق سريره .. وفي كل غرفة ، وفي كل بيت ، وعلى الجدران في الشوارع ، وفي كل انحاء البلاد ، وكانها اعلان عن فلم سينمائي .. او عن مسحوق للغسيل !!

صحا روبشوف ، ولكن الطرق على الباب ، الشيء الذي كان يحلم به اثناء نومه ، لم ينقطع هذه المرة رغم انتهاءالحلم . كان الطرق حقيقيا ، وفتح روبشوف الباب ...

رأى امامه ضابطين وقد جاءا لاعتقاله . وفي هذه المرة كان الاعتقال حقيقيا ... ليس في المانيا ، ومن قبل الضباط النازيين الذين يضعون شارة الصليب المعقوف ، كما كان يحدث في الحلم ، وانما في بلاده التي حارب من اجلها .. ومن قبل ضباط من قومسيارية الشعب !!

اقتاده الضابطان الى السجن ... ومشى في احد الممرات حتى وصل الى الزنزانة رقم ٤٠٤ ـ وهناك رأى على باب الزنزانة بطاقة كتب عليها اسمه : نقولا سلمانوفتش روبشوف !!

اذن لقد أعدوا كل شيء من قبل !!

وفي الساعة السابعة تماما استيقظ روبشوف على دوي البوق في السجن ، فأدرك وضعه الجديد . ولخبرته السابقة بمثل هذه الامور ، عرف انه سيبقى في الزنزانة لفترة ، ثم يأخذونه ويطلقون عليه النار . قال لنفسه : (اذن سيطلقون علي النار ؟ اذن سيقتلونني ؟! رجال الثورة الاول والحرس القدامى .. ماتوا ، ونحن سنلحقهم ... نحن ايضا سوف نتحطم مثلهم .. الجميع سيغطيهم الغبار كعمال المداخن ـ ص ١١ ـ)

وعادت به الذاكرة الى الايام الماضية ... الى ذكرى المؤتمر الدولي الاول ، والى رئيس المؤتمر بالذات . كان صديقا لروبشوف .. وقد اعدموه بتهمة الخيانة العظمى!. وتذكر رئيس وزراء دولة الثورة .. اعدموه كذلك . كثير من الرفاق القدامى زالوا من الوجود .. لقد اعترفوا جميعا بتأثير العذاب والتحطيم الجسدي والمعنوي ، أنهم كانوا على خطأ ، وان « الرجل الاول » .. وحده المعصوم !!

وانتبه روبشوف من تفكيره على صوت ضعيف .. كان جاره سجين الزنزانة « ٤٠٢ » يدق له على الجدار دقات معينة .. وهي وسيلة الاتصال بين المساجين ، وتشبه الطريقة المتبعة في دوائر البرق والبريد . كان يسأله عن اسمه . ودق له روبشوف اسمه كاملا : نقولا سلمانوفتش روبشوف . واجابه السجين ٤٠٢ ساخرا عن طريق الدق:

افو ، الذئاب تلتهم بعضها !

ولم يرد عليه روبشوف ، وانما عاد الى عالم الذكريات .. الى ذكرى اعتقاله الاول في المانيا . كان ذلك عام ١٩٣٣ في الايام الاولى لعهد الارهاب الذي نشرته الديكتاتورية الجديدة ... وقد انهارالحزب هناك . فأوفد روبشوف من قبل اللجنة المركزية للحزب ، لاعادة تنظيم صفوف الحزب في المانيا ، ولكنه اعتقل .

ودارت به الصور والذكريات ، وبدت في ذهنه صورة كبيرة تضم ممثلي الحزب في اول مؤتمر عقدوه ، وقد جلسوا حول طاولة خشبية مستطيلة يحملقون بعدسة آلة التصوير ، وبان في وجوههم الجد والوقار الا « الرجل الكبير » فقد بدت في عينيه نظرة دهاء وسخرية . كان روبشوف يجلس الى يمينه مباشرة ، اما « الرجل الاول » فكان عند طرف الطاولة . كانوا في ذلك الوقت حفنة رجال من طراز جديد ، كانوا فلاسفة عسكريين يحضرون اعظم ثورة في تاريخ البشرية، ولكن اين هم الان ؟.. ادمغتهم التي غيرت اتجاه العالم ، تلقوا بها وابلا من رصاص غالبا ما اخترق جماجمهم من الخلف!

اثنان او ثلاثة فقط نجوا بجلودهم وتفرقوا في بقاع الارض يائسين ، ولم يبق من هؤلاء جميعا سوى « الرجل الاول » و ... روبشوف . حتى أسماؤهم كانت لا تذكر الا وتلاحقها اللعنات والشتائم !.. ما عدا « الرجل الكبير » الذي كان في الزمن السالف « أبا الثورة » وقد مات في.. الوقت المناسب . كانوا يسمونه « الاله الاب » ولكن هذا لم يمنعهم من الهمس بأن « الرجل الاول » قد زور وصية الراحل تمهيدا ليرثه ، ثم استعجل موته !.. اما هؤلاء الذين بقوا احياء ، فقد تغيروا كثيرا ، وكلما اصطاد « الرجل الاول » من بينهم ضحية جديدة ، سارع الباقون بقرع صدورهم ندما وبالاعتراف امامه بخطاياهم .. ـ٤٤ـ)

ان حدوث مثل هذه الامور ، نتيجة طبيعية لمنطق **التطهير** الذي يتكرر في كافة الاحزاب الشيوعية ، وعلى صورة واحدة . لان التطهير نتيجة حتمية ، ومن مستلزمات « الحزب الفرد » الذي يجلس على قمته دائما ، الزعيم ... الرجل الاول . ان بنيان او تركيب الحزب الفرد ، يؤدي ـ لا محيد ـ الى هذه النتائج . لان من طبيعة الحزب الفرد، ان يمنع الجماهير من ممارسة فعالياتها السياسية ، وهذا يخلق هوة بين الحزب والجمهور ، وبالتالي يصبح كل منهما معزولا عن الاخر . ولذا فان وجهات النظر المباينة لراي السلطة الحاكمة ، لا تأتي من الخارج : راي عام ـ صحافة ـ راديو ـ اجتماعات ـ مظاهرات ... كما يجري عادة ، وبصورة علنية ، في الانظمة الديموقراطية . بل تقوم المعارضة ، وبصورة سرية « داخل » الحزب .. وبين الاعضاء الكبار . والشخص الذي ينتصر ، يقوم بتصفية شاملة تبدأ بأعضاء الحزب الكبار الذين كانوا يباينونه في الراي، وتجر وراءها كل اشيائهم الصغار !! والحزب بعد ذلك ، يعرض حقيقته الرسمية الجديدة ، على انها الحقيقةالنهائية وكل ما لا يستطيع ان يتكيف مع الحقيقة الجديدة ، يكون عرضة للتصفية والتطهير.!!

ان تاريخ الحزب الشيوعي في اكبر دولة شيوعية في

العالم ، كان شاهدا على هذه الحقيقة المرة . الم يحدث هذا في روسيا خلال اربعين عاما من تاريخ الحزب ؟!

لقد وصم ستالين بعد موته ، ومن قبل اعوانه السابقين بأنه اكبر سفاح في التاريخ !! وبعد ان ادى التطهير مهمته بتصفية العناصر الستالينية ، عاد المسؤولون الان في الحزب ، فخففوا التهمة .. واخذوا يعيدون له شيئا من الاعتبار !!

آخر هذه السلسلة ، كانت « **توبة** » بولغانين العلنية على يدي خروشوف !!

* * *

عاد روبشوف الى وطنه ، بعد ان اطلقت السلطات الالمانية سراحه. وبعد اسبوع أوفد بمهمة جديدة الى بلجيكا. وفي احدى المدن الواقعة على المرفأ ، اجتمع مع « ليوي » رئيس الحزب في المدينة . وانجز روبشوف المهمة .. بعد معارضة من « ليوي » . فشهر به روبشوف في جريدة الحزب ، واتهمه بانه مخرب وعميل وجاسوس اجنبي !! وطرد ليوي ، ثم شنق نفسه بعد أيام !

تذكر روبشوف كل هذه الحوادث وهو في زنزانته.. كان يفكر في حياته الماضية ، وبشكل خاص بسكرتيرته السابقة « **ارلوفا** » . فبعد ان انهى روبشوف مهمته في بلجيكا ، قررت اللجنة المركزية للحزب نقله الى السلك الديبلوماسي ، فعين رئيسا للوفد التجاري في بلاد : ب . كان معه « ١٢ » موظفا ، وكانت « أرلوفا » سكرتيرته الخاصة .

تخيلها روبشوف وراء طاولتها .. بجسمها الرائع وعطرها الذي يعبق في الغرفة ، وقد اندفع ثدياها الى الامام بشكل مثير !.. تخيلها وهي نائمة في غرفته ، وكانت تذهب كل ليلة اليه . وفي ذلك الوقت ، كانت حكومته تجري تصفية ثانية للمعارضة وانعكست هذه الاجراءات التي جرت « **هناك** » على المفوضية ، حيث كان روبشوف. فاختفت صور الزعماء الكبار .. واخذ الموظفون يتكلمون بلهجة رسمية جدا ، وبالعمل فقط . لقد بدا الموظفون لروبشوف ، كالدمى التي تحركها خيوط خفية !!

(ليس الصور لوحدها التي اختفت عن الجدران... بل كتب كثيرة ونشرات وسجلات لها علاقة بالذين اعتقلوا هناك . اختفت ايضا جميع الكتب التي تبحث في التجارة الخارجية والمالية ، لان مؤلفها قو مسيير الشعب للشؤون المالية ، اعتقل منذ ايام . وكذلك تقارير المؤتمر الاول وكتب التاريخ لما قبل الثورة والدراسات العسكرية والاقتصادية ، حتى الموسوعة التي وضعتها الاكاديمية سحبت كلها من مكتبة المفوضية ، ووصلت كتب جديدة في التاريخ والعلوم السياسية والاجتماعية ، حتى مذكرات رجال الثورة الذين توفوا ، سحبت !! وجاء بدلها مذكرات جديدة .. لنفس المؤلفين الاموات !!! ـ ٧١ ـ) .

وقد علق روبشوف على هذه الاحداث أمام ارلوفا

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

أغنية من الجزائر

العالم والحرية !

الفلك الدوار يغنّي
اشواق الانسان النائي
ووليد قمري يرقى
آفاق الارض العذراء
يا للفرحة تحتضن الكون
انفاسا تتهدج
تاريخا يتوهج
لم تغمض في ليلته عين
لم يسكن في دوحته طير
الكون جميل ، ما احلى
فليصعد فوق القمة فجر
وليتدفق نهر
الكون جميل ، ما احلى
لكن عشاق الحريه
ما زالوا يغشون الظلمات
ما زالوا انضاء صراع
لم تدفن منهم أموات
لم تعزف مرثية وداع
العالم ملك البشريه
لكن الحريه
ما زالت أمنيه

القاهرة

حسن فتح الباب

ظـلام في النـهار

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٩ ـ

بقوله : « الشيء الوحيد الذي نسوه ، هو ان يعيدوا طبع الصحف والجرائد القديمة » .

وجاء الامر من فـوق بتعيين أرلوفا في مكتبـة المفوضية ، وبتحمل مسؤوليتها سياسيا ـ وبعد اسبوع فقط عقـد موظفو المفوضيـة اجتماعا باعتبارهم خليـة حزبية .. وهوجمت أرلوفـا بشدة واتهمت بالتقصير . والسبب ، **ان خطبا كثيرة للرجل الاول غير موجودة فـي المكتبة !!** وشعر روبشوف ، وهو الخبير بمثل هذه الامور ، بعدم ارتياح لما حدث ، وان شيئا ما يدبر ضد أرلوفـا فـي الخفاء . لان المقصر في الحـزب .. هو جاسوس وعميل !! وطردت أرلوفا في اجتماع آخر ، ودعيت مـع احد الموظفين الى « هناك » وأعدمت بعد حين !!

والسبب ، ان أخا ارلوفا اعتقل « هناك » مع زوجته الاجنبية ، بتهمة الانضمام للمعارضة والتجسس !!

ان حادثة ارلوفا ، تعطينا مثالا على مدى الانحدار الاخلاقي الذي يمكن ان يصل الانسان اليه في ظـل الانظمة الشيوعية ، فقد سرى في جميع الموظفين تيـار خفي لكراهيتها ، لمجرد النية السيئة المبيتة ضـدها **من فوق !!** وخوفا من انتقال عدوى الشبهة اليهم ، عمدوا الى تقديم برهان ايجابي على براءتهم .. فحكموا بادانـة ارلوفا ، مع القناعة التامة ببراءتها !!

ان منطق انظمة الحكم الارهابية ، انها تحض عـلى ارتكاب الشر ، والمستنكف يعاقب ، وتلك غاية الفجـور . لان الجمهور تجنبا للوقوع في قبضة الارهاب ، لا يكتفي باعلان رضائه عن النظام ، بل يندفع ايضا في مزالق ، يصبح فيها ، هو نفسه ، وسائل مباشرة لممارسة الارهاب. وهكذا لا اصحاب النظام الارهابي يخدمونه او يمارسونه فقط ، وانما اعداؤه ايضا ، او الذين يقفون على الحياد.

والانحدار الاخلاقي الثاني ، قائم في مشكلة العقاب : لقد كانت المسؤولية في الشعوب البدائية ، جماعيـة ، فهي لا تقتصر على الفرد المسؤول ، بل تتنـاول اسـرته وعشيرته ـ ولكن المسؤولية في العصر الحاضر ، بتـأثير الدين والتقدم الاخـلاقي ، تنحصر في مرتكبها فقط ، والعقاب لا يقع الا عـلى المجرم فقط .. وتلك ابسط مسلمات العدالة . **ولكن الشيوعية ، تقوم على المسؤولية الجماعية . انهـا ترتد فينا ، بالتطبيق ، الى العصـور البدائية .. متخطين كل القيم الاخلاقية** ، حيث نجد ان العقاب بالنسبة للمخطىء ، على فرض وجـود خطيئة ، يمتد الى أقربائه وأصـدقائه وحتى الى من شاركوه ، جزئيا او كليا ، في وجهة نظره .. ولو كانت المشاركـة بالنية فقط !!

* * *

لقد سرت عدوى الارهاب الى جميع موظفي القنصلية، فلم يجرؤ احد منهم على ذكر اسم ارلوفا .. ولا من قبيل التلميح . ولكن روبشوف ظل يذكرها خلال الفترة التي قضاها في بلاد : ب ـ قبل ان يستدعى ، هو الآخر ، الى « هناك » . كان عطرها ورائحة جسدها عالقين في كل مكان يكون فيه .. في جو الغرفة ، والمكتب ، وعلى مائدة الطعام ، وفي الاجتماعات الحزبية !!

وبعد مرور ثلاثة أيام على وجـوده في السجن ، اقتيد روبشوف الى الاستجواب . كان المحقق صديقـه القديم ابان الدراسة .. ورفيقه في الحزب ، آمر فوج سابق في الحرب الاهلية : **ايفانوف !!**

اتهم روبشوف بأنه يعمل مع المعارضة .. وانـه يرسم مخطط اغتيال « الرجل الاول » . وعرض عليـه ايفانوف ، باعتباره صديقا قديما ، **ان يدبر له اعتـرافا** بسيطا بحيث لا يكون الحكم أكثر من عشرين عاما ، يقضي منها روبشوف عدة سنوات ثم يمنح عفوا خاصا ، واعطاه مهلة اسبوعين ليفكر في هذا الاقتراح !!

استدعي روبشوف للاستجواب من جديد . وكان المحقق هذه المرة « غليغتن » مساعد ايفانوف . امـا ايفانوف فقد اعدم لانه لم يؤمن بصحة الاتهام الموجه الى روبشوف !!

دام التحقيق خمسة او ستـة ايام باستمرار .. فاغمي على روبشوف عـدة مرات . وانتهى التحقيـق باعترافه . لقد اعترف روبشوف في المحاكمة العلنية ، بأنه كان عميلا مناهضا للثورة ، وبأن اعترافاته هذه التي ادلى بها خلال التحقيق ... ادلى بها من تلقاء نفسـه وبارادته ووعيه!! وذلك للتكفير عن جرائمه المناهضة للثورة.

قال روبشوف لرئيس المحكمة : (سأشرح لكـم سقوطي ، عله يكون انـذارا لاولئك المترددين والذيـن لا يزالون يشكون بقيادة الحزب وبصواب خط الحزب . يغطيني العار ويجللني الغبار ، وانا على وشك الموت اشرح لكم قصة خائن علها تكون درسا ومثلا رادعا للملايين مـن ابناء بلادنا ... ١٥٤)

والقى النائب العام مرافعته بعد ذلك .. واختتمها بقوله : « اني اطالب باعدام كل هؤلاء الكلاب المجانين !! » وبعدها تلا رئيس المحكمة نص الحكم ، القاضي باعـدام روبشوف رميا بالرصاص !

وهكذا انتهى الدور .. وآن للممثل ان يتوارى عن المسرح !! لقد اسدل الستار على الفصل الاخير من المهزلة!!

لقد انتهى كل شيء .. وادرك روبشوف ان حياته ستنتهي قبل منتصف الليل !! لقد دفع ثمـن اخطائه ، ولم يعد مرغما على العواء مع القطيع .. قطيع الذئاب . وما تبقى له من الحياة ، ملك شخصي له... ملك الضمير.

أربعون سنة في خدمة الحزب .. لقد اعطى للحزب كل شيء ، فماذا كانت النتيجة ؟!.. الحزب ينكر وجود « الأنا » !!.. والفرد لا شيء ! فكيف يعتبـر مسؤولا ؟

اي منطق هذا الذي يسير بموجبه الحزب ؟!

(أنكر الحزب ارادة الفرد ، وفي الوقت نفسه أقر ارادة الفرد في ان يضحي بنفسه ... أنكر الحزب على الفرد مقدرة الاختيار بين سبيلين ، ومع هذا طلب منه ان يختار الصواب من الخطأ . بات الفرد تحت رحمة أقدار الاقتصاد ، ترسا في جهاز ساعة ، وعبىء ليدور الى الابد دون توقف ، والحزب يريد من الترس ان يدور عكس الاتجاه ويغير خط سيره ... اربعون سنة عاشها حسب أوامر الحزب ، لقد قذف بكل بقايا الاخلاق القديمة والعقلية القديمة ، وتحرر من الصوت الداخلي .. وقاده كل هذا الى محاكمة علنية ... ـ ١٦٠)

(لماذا يموت ؟.. تلك خطيئة النظام الذي ضحى لاجله بالآخرين ، ثم بنفسه . خطيئة « الغاية تبرر كل وسيلة » ـ ١٦١ ـ)

لقد كان روبشوف مؤمنا بهذه الحكمة !!! وباسمها ضحى بكثيرين .. وقاد وراءه مئات المضللين ، وهو واثق بأنه يخدم بذلك جماهير الشعب !.. ولكن ماذا حصل لهذه الجماهير ؟.. « أربعون سنة وهي تساق عبر صحراء قاحلة بسياط التهديد والامل ، وبتصورات الارهاب والمكافأة ، دون ان تصل الى ارض ميعاد !.. ـ ١٦٤ ـ »

اقتيد روبشوف لتنفيذ الحكم .. وعند مدخل الدرج المؤدي الى الاقبية ، حيث يجري التنفيذ .. سأله الحارس : هل لك رغبة اخرى ؟! فأجابه روبشوف : كلا .

اخذ روبشوف ينزل الدرج .. كان الدرج ضيقا ، والحارس الذي يسير خلفه كان على بعد ثلاث درجات .. وصل روبشوف الى نهاية الدرج ، وبدأ يسير في ممشى طويل ... كان يشعر بنظرات الحارس خلفه تنصب على عنقه ... وكان يحاول ان يمنع نفسه من الالتفات الى الخلف ...

« وصدمته ضربة قوية على مؤخرة رأسه ، كان يتوقعها ، ولكنها فاجأته ، لقد داخ ، وتراخت ركبتاه ، ودار جسمه حول نفسه نصف دورة ... تكوم على الارض وصدغه على البلاط ، وساد الظلام وأرجحه البحر على سطحه الحالك ، وعبرت الذكريات كشريط من الضباب فوق الماء ، خيل اليه انه يسمع خبطا على الباب الخارجي ، هل تراهم جاءوا لاعتقاله ؟.. ولكن أين هو ؟.. في اي بلاد ؟..

انحنى فوقه جسم مطاط لا حدود له ، وشم رائحة الحزام الجلدي ... ما هذه الشارة التي يحملها على ذراعه ، وباسم من يحمل مسدسا صوب فوهته السوداء اليه ؟..

... وضربة اخرى في صدغه .. وهدأ كل شيء واستكان ، أمواج البحر ما زالت تتلاطم ... رفعته موجة الى أعلى ، جاءت من البعيد ، البعيد .. وتابعت سيرها بهدوء واتزان ، انتفاضة من الابدية ... ـ ١٦٥ ـ »

لقد انتهى روبشوف !..

« تعقيب عام »

القضايا الاخلاقية ، والفكرية ، والسياسية ، هي القضايا الرئيسية التي تعالجها رواية « ظلام في النهار » . وهي قضايا راسخة الجذور في التفكير الانساني ، مارسها البشر منذ اقدم العصور .. والى اليوم . ولكن القضية الاخلاقية هي الخط الاساسي للرواية ، الذي يستقطب كافة الاحداث .

ويلوح لاول وهلة ، ان القضية الاخلاقية مطروحة في الرواية ، على اساس التقابل او التضاد بين مذهبين رئيسيين في الاخلاق : المذاهب المثالية ـ العقلية ، والمذاهب الواقعية (النفعية ـ التجريبية) وما ينتج عنها من تفرعات . ويأخذ التعارض صورتين : ١ ـ **فاذا** قالت الواقعية « الغاية تبرر الوسيلة » .. كل الوسائل ، وأية وسيلة بدون استثناء !! أجابتها المثالية ـ العقلية : **« كل غايات العالم ، لا تبرر وسيلة لا اخلاقية واحدة »** .

٢ ـ واذا قالت الاولى : **« الفرد مجرد أداة لا قيمة لها »** أجابت الثانية : **« الفرد ذو قيمة اولية ، ويجب احترام جوهره الانساني »** .

هذا ما يلوح للقارىء ـ ويؤكد لديه هذا الاعتقاد ، ان الرواية في أكثر اجزائها تطرح هذه القضية بوضوح . ولكننا نرى ، ان الناظم الاساسي للرواية ، هو فكرة : **« الحرية »** . وما يريده المؤلف على وجه الدقة ، كما نرى ، هو : ان الحرية هي ، وتظل دائما ، وسيلة الانسان الوحيدة للمعرفة والتقدم . وأية مكتسبات تتعلق بالحرية ، لا يجوز التخلي عنها بحال من الاحوال ، لقاء افتراضات موهومة تحت شعار : ازدهار مقبل ، عالم أفضل !!.. لان لان هذا العالم الافضل المفترض ـ حتى لو كانت النية سليمة ـ سيؤول الى الخطأ ، لانه امتداد لجيل حرم من جو الحرية .

يؤكد لنا صواب رأينا ، حديث روبشوف مع ايفانوف خلال التحقيق : (نقود جماهير الشعب بالسياط نحو سعادة نظرية مقبلة لا يراها سوانا ، لقد استنفدت قوى هذا الجيل ونشاطاته ولم يبق منها سوى النواح والانين ، وكتل فاقدة الشعور . هذه هي نتائج منطقنا ، لقد سلخنا جلد الضحية وابقيناها واقفة بقوة الانسجة والعضلات والاعصاب ... واني أرى جلد هذا الجيل المسلوخ ، ولا أرى الجلد الجديد ـ ١٠٨ ـ) .

ماذا حصل لتلك الجماهير ؟.. أربعون سنة وهي تساق عبر صحراء قاحلة بسياط التهديد والامل ، وبتصورات الارهاب والمكافأة ، دون ان تصل الى ارض ميعاد !.. ـ ١٦٤ ـ)

الحرية اذن هي الاساس . ولكن أنظمة الحكم القائمة على الطغيان ، تحذف من قاموسها كلمة « الحرية » وهذا يؤدي الى اهدار كرامة الانسان ، وبالتالي الى اعتبار الفرد مجرد اداة .. يمكن استبداله وازالته في أي وقت !! ان القاعدة الذهبية !! لهذه الانظمة : « الغاية تبرر

الوسيلة » .. وهذا عكس الانظمة الديموقراطية القائمة مبدئيا على مبدأ الحرية واحترام كرامة الانسان . فاذا انحرف الحكم الديموقراطي ، فان الخطأ والانحراف يكونان في الممارسة والتطبيق ، لا في المستند .. قاعدة الاساس . ويمكن دائما ، بضغط الجماهير والمعارضة ، العودة للطريق السوي .

أما « الغاية تبرر الوسيلة » ولو اعتبرناه مبدأ صحيحا لفترة ما .. من الظروف التاريخية ، فلا يمكن اعتباره منطلقا أساسيا على الاطلاق . وكونه ذا فائدة موقتة .. لا يعطيه ابدا « مشروعية أخلاقية » خلال الممارسة والاستخدام .

والانظمة الديكتاتورية ، القائمة على القاعدة السابقة، ولو انها مبررة وضرورية في بعض الظروف التاريخية ، فانها تحمل في طياتها عوامل الفساد والانهيار : اذ ما هو الضامن ، ان نرتد في المستقبل الى حظيرة الحرية والديموقراطية ؟.. وما هو الضابط الذي يمكنه ان يوقفنا في اللحظة الحاسمة عند نقطة التحول والانحدار.. فلا نسقط الى الهاوية ؟!

ان الحاكم الذي يحصر في شخصه كافة القوى ووسائل الحكم ، ليستعملها في فترة معينة من تاريخ الامة ، ولمصلحتها .. يؤول به الامر ، رغم زوال المبررات، الى ابقاء هذه القوى في يديه ، والى استعمالها من جديد، لا لشيء الا لانها في يديه !! وهذا ما تؤكده لنا احداث التاريخ . والاشخاص الذين كانوا استثناء لهذه القاعدة ، من النادرين .

تلك هي الفكرة التي حاول المؤلف ابرازها في الكتاب ، وكانت حياة روبشوف ، البرهان العملي على ان الحرية هي وسيلة الانسان الوحيدة للمعرفة والتقدم.. وعلى ان مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » الذي يستخدم عادة في مرحلة ما .. ومن اجل مصلحة جماهير الشعب، لا يمكن ان يتخذ كنقطة انطلاق ، لانه يؤدي في النهاية الى ارهاب هذه الجماهير !!

* * *

قضى روبشوف حياته في خدمة الحزب ، واعطى للحزب كل شيء .. فكانت النتيجة ، الاعدام بالرصاص!!

رغم هذا المصير المفجع ، والذي استطاع المؤلف ان يبرزه بعمق .. فاننا لم نشعر بأي « **تعاطف** » مع روبشوف .. ولم نحزن لمصيره !! لقد وعينا مأساته بالعقل ، وكان حكمنا قاسيا على الحزب .. ولكننا لم نشعر نحوه بمشاركة عاطفية نابعة من القلب !! الامر الذي يثير الحيرة اول الامر . ونعتقد ان معظم قراء الرواية يشاركوننا الرأي في وجود هوة قائمة بين وعي مصير روبشوف المأسوي بالعقل ، وعدم التعاطف مع هذا المصير .

لقد ظلت عاطفتنا على الحياد !.. بل يمكن القول بأننا شعرنا بنوع من الشماتة لهذا المصير .

والسبب ـ في رأينا الشخصي ـ ان « تمرد » أو : تحرر ، روبشوف كان اجتهادا خاصا ضمن نطاق الحزب ، ولم يكن ثورة ذاتية أصيلة . ان روبشوف لم يقدم لنا عطاء ذاتيا على شكل وجهة نظر جديدة نابعة من وجدانه اثر أزمة ضمير حقيقية ، بل ظل يدور في فلك الفكرة الاساسية .. الحزب !!

لقد انساق خلف تفرعات .. كان الطابع الشخصي هو الغالب عليها ، ولم يكن الخلاف ، خلافا حول «المستند» الاساسي للحزب ، أو الاهداف . لقد ظل روبشوف خلال الرواية في الجهة المضادة لوجهة نظرنا الذاتية ، ولذا لاح لأعيننا بمثابة العدو او النقيض .. وهذا مصدر شعورنا بالشماتة !..

ان « موقف » روبشوف شاهدنا على ذلك :

* * *

ان معارضة روبشوف ـ كما يطرحها الكتاب ـ هي ثورة اخلاقية ، ولكن اخلاق روبشوف الحقيقية هي ان يخضع دوما للحزب . ولانه ظل يدور في نطاقه ، فقد بقي محافظا على هذه الاخلاق !.. وبما ان الاخلاق في الحزب هي : **الطاعة** .. الحزب كل شيء ، والفرد لا شيء ! لذلك اعترف روبشوف ـ من اجل الحزب ـ بجرائمه !!! علنا في المحاكمة .. وحقر نفسه وجللها بالخزي والخيانة والعار .. لقد استسلم دون قيد أو شرط !

وقد يتساءل القارىء : لماذا حرص المحقق على دفع روبشوف للاعتراف العلني ، وكان بامكان الحزب ان يقتله دون ضجة ودون حاجة لتبرير القتل امام الجماهير ؟

ان المغزى العميق من الاعترافات العلنية ، لا لتبرير القتل ، بل لجعل الشعب يؤمن بأن الحزب .. او الرجل الاول ، لا يخطىء . وكيف يخطىء الزعيم ، والمتهم الكبير يعترف علنا بخطئه ؟ ان الاعترافات مادة دسمة للاستهلاك الجماهيري . والمتتبع لحركات التطهير والمحاكمات في الاحزاب الشيوعية ، يجد أن كافة الاحزاب الشيوعية تتبع هذا الاسلوب !..

العبودية .. تلك كانت بداية روبشوف ، ولذلك كانت النهاية على نفس المنوال ، ولم يعد باستطاعته ان يكون حرا ، بكل ما في الكلمة من معاني .. وهذا سر انهياره التام !..

* * *

ذلكم هو الجانب الفكري من « ظلام في النهار » وهو الجانب الاهم . وقد استطاع المؤلف طرحه بعمق.. وبثقل وجداني وفكري عنيف . ولكن هذا لا يعني ابدا ان الافكار كانت مبثوثة في الرواية على شكل «محاضرات» أو ان الجانب الفني من الرواية دون مستواها الفكري .

وكنا نرغب في ايفاء الرواية حقها .. لولا ان الحديث قد طال . وباختصار نقول : « انها عمل فني كامل ، ببراعة نادرة المثيل . انها شبيهة بالجسد الحي .. وحدة تامة ، لا تفكك فيها ولا انفصام !

درعا ـ (الاقليم الشمالي) **محمد حيدر**